هاني الزعبي

ازمة الشكل والمضمون الفني في الرواية والقصة القصيرة الفلسطينيتين

١ ـ مدخل

تشهد الساحة الفلسطينية اتجاهات فكرية وسياسية عامة ومتنوعة ، تنبع في اصولها عن اوضاع الشعب الفلسطيني المختلفة، هذه الاوضاع التي تباينت نتيجة لتشرد وتوزع الشعب الفلسطيني في جميع بقاع واقطار العالم العربي ومن ثم فرضت انتماءات مختلفة للانسان الفلسطيني . والحقيقة ان هذه التيارات السياسية والفكرية التي تعمل في الساحة الفلسطينية ليست دليلا على تهوش او تلبك مرضي سياسي في العقل الفلسطيني بقدر ما هي براهين وافية على خصب التربة السياسية الفلسطينية ونمو الاتجاهات الديموقراطية والمتحاورة فيها ، الا ان هذا الخصب والنمو السياسي لم ينعكسا بالضرورة على الرواية والقصة القصيرة في الادب الفلسطيني ،انعكاسا ايجابيا وجدليا ، بل تحورا وبطريقة ساذجة ومفجعة الى مهاترات وشتائم وشعارات تسود الرواية والقصة الفلسطينيتين . والسبب في ذلك راجع اولا الى ان تلك التيارات السياسية تندفع بقوة عاتية بحيث لا يستطيع الادب الفلسطيني الروائي والقصصي ان يكون صورة سيمائية فكرية واضحة لها ، ثانيا ان الرواية والقصة الفلسطينيتين حديثتا العهد بالوجود ولم تزالا في طورهما الطفولي، هذا التكوين الذي يبدأ بالاسلوب التعليمي والاعلامي المباشر وتعمل فيه اللغة الخطابية السياسية والاعلانية ، لهذا لم يكن امامنا مفر من الاعتراف بهذه الحقيقة بعد متابعتنا ودراستنا لمجمل الاعمال الروائية القليلة ولبعض القصص القصيرة الفلسطينية ، التي ولظروفها الخاصة تتجه نحو النضج والاكتمال بسرعة اكبر من سرعة الرواية، وسنأتي على ذكر تفاصيل ذلك في موقع لاحق من هذه الدراسة .

لهذه الاسباب مجتمعة لم تتمكن الرواية والقصة القصيرة الفلسطينيتان من ان تستخلصا من خصائص الشعب الفلسطيني ومعاناته الحقيقية الدقيقة سمات واطرا فنية عامة تميزهما وترتفع بهما الى مصاف الروايات والقصص العالمية التي تنطوي على طاقات تضمن لها الاستمرار في الزمن .

٢ ـ تعريفان للرواية العالمية والانسجام الفني فيها

يبدو المدخل الى هذه الدراسة القصيرة قاسيا ومخيبا لامال بعض الكتاب الفلسطينيين ، ولكنه يستمد حقيقته وصدقه من واقع ومعطيات الرواية والقصة الفلسطينيتين ، في حالة قيامنا بعملية استثناء واحدة لا غير ، فلو اخرجنا روايات وقصص الشهيد غسان كنفاني بما تمثله من تكامل فني ، من محيط الادب الروائي والقصصي الفلسطيني فان هذا المدخل لا يعتريه اي شك ، فعلى الرغم من ان القضية الفلسطينية بجوهرها وتفرعاتها هي القضية المحورية للامة العربية منذ اكثر من نصف قرن ، الا ان القصة والرواية الفلسطينيتين تعانيان من عسر الهضم ولم تتمكنا بعد من استيعاب هذا المعنى وصياغته ضمن قالب فني شامخ متكامل الجوانب ، يظهر شخصيتهما ويمنحهما الشكل المتميز بخصائصه الفلسطينية ، بالاضافة الى انفتاحه وقدرته على هضم الافرازات النفسية والسياسية والاجتماعية الناتجة عن الواقع العربي المتحرك ، ولكي تتضح لنا ابعاد الصورة السابقة ينبغي ان نضع امامنا تعريفين سياسيين وفنيين للادب الروائي والقصصي الحديث ، واول هذين التعريفين هو التعريف الليبرالي والذي عبر عنه ، د . م البيريس ، ادق تعبير فهو يقول :

(ان اعمق بواطن الكائن واكثرها حركة واشدها سرية هي الهاوية التي جذبت نحوها الرواية منذ القرن السابع عشر ، وان القارىء دون وعي منه بهذا السحر الذي يستسلم اليه بمتعة ، يتبنى بيسر دور مصاص الدماء الذي يجعل من قراءة الروايات متعة سادية) (١).

وعلى اساس هذا التعريف يصبح دور الروائي او القاص، هو دور مكتشف ينابيع الحياة الباطنية الذي ينضح منها النسغ ليشرب القارىء ويزيد حياته سعة وغورا مما يستقيه من تلك الخبرات السرية الكامنة في باطن الانسان . اما التعريف الفني السياسي الاخر فهو التعريف الماركسي والذي يقف على طرف نقيض وتضاد مع التعريف الاول، يقول جورج لوكاتش :

ويكفي ان نذكر هنا « ابن اخي رامبو » لديدرو « والرائعة المجهولة » لبلزاك ، ففي هذين العملين ايضا (يكتسب الاشخاص قسماتهم الفردية من موقفهم الحي والشخصي والمصيري من مسائل مجردة) (٢) اي ان الشخصية الروائية الناضجة والحية تتعامل مع قضايا الوجود والدين والمصير العام تعاملها مع مسألة الخبز والاطفال

---

(١) تاريخ الرواية الحديثة . د . م البيريس ، ترجمة جورج سالم ، صدر عن مكتبة الجامعيين ، بيروت ، الطبعة الاولى سنة ٦٧ .

(٢) دراسات في الواقعية ، جورج لوكاتش ، ترجمة دكتور نايف بلوز ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٢ .

والزواج وغيرها من المسائل الفردية ، ثم يضيف لوكاتش (ان اي وصف لا يشتمل على نظرة شخصيات العمل الادبي الى العالم لا يمكن ان يكون تاما) (٣) اي ان اي عمل روائي وقصصي لا يتضمن موقفا فكريا ايديولوجيا تتخذه شخصيات هذا العمل ازاء العالم لا نستطيع تصنيفه كعمل روائي او قصصي فني متكامل . من هذين التعريفين الاساسيين والمتناقضين نخرج بالنتيجة التالية وهي ان مهمة الرواية والقصة القصيرة اما الغوص الى العمق واقتحام عالم الذات السري واخراج مكنوناته الى الملأ ،واما صب سمات الذات الفكرية وتحديدها في اطار وموقف فكري رسمي وعملي من مجرى التاريخ ، على ان يتم التعامل في كلتا الحالتين مع العمل الروائي والقصصي على اساس كونه عالما فنيا مكتفيا بذاته لا يحتاج الى تبرير او تكملة لتوضيحه من الخارج، اي ان الشكل الفني ها هنا اطار عام للمضمون الفكري يعتمد على وعي وقدرة الكاتب على ممارسة الخلق الابداعي ، وبكلمة اخرى فان الروائي يمتحن من خلال رسمه لعالمه الفني الذي يستحيل على المضمون الفكري الظهور والاستمرار في الزمن بدونه .

لقد انطلقنا من تعريفين نظريين لفهم دعائم الرواية والقصة واصالتهما لكي نتمكن من اصدار الحكم الصحيح على الرواية والقصة الفلسطينيتين والان يجب علينا البدء بتطبيق عملي عليهما وقياس مدى انسجام احد هذين التعريفين عليهما ، والحقيقة اننا لا ندعي بان هناك مقاييس جاهزة وقاطعة بدرجة علمية ، ولكن هناك ايضا درجات واضحة لبناء الشكل الفني في الرواية والقصة تجعل من الصعوبة بمكان ، زج اي كلمات سياسية او فكرية او وجدانية متراصة في دائرة العمل الروائي . لقد تميز غسان كنفاني بطاقته الخلاقة وقدرته على تمثل احدث الاساليب والاشكال الروائية الحديثة وتطويرها بما يلائم قضيته واتجاهه ، اننا نلمس تشابها ملحوظا بين الشكل الفني في روايته « ما تبقى لكم » وبين الشكل الفني عند وليم فولكنر الامريكي صاحب رواية « الصخب والعنف » حيث استعمل غسان الابعاد الثلاثية للزمن داخل بناء هرموني يتصاعد بتوتر حتى يصل حد التوهج ثم الانفجار في المصب الحتمي لمجرى مضمون الرواية ، في اللحظة الحتمية لذلك . لهذا لم يكن غسان رجل قضية سياسيا فقط بل كان روائيا ممتازا . (ان الذي قدمه غسان للرواية العربية عظيم ، كان حاضرا فيما تبقى لكم، برصد كل ما هو سلبي، لكي يقود الى ما هو ايجابي حيث تكثر احتمالات تفجر الصراع)(٤) ان هذه الفقرة كافية لتوضيح الرواية الغسانية وان كانت تنبع من الناحية الشكلية للبناء الروائي وانسجامه مع باطنية العمل ، ولعل الدكتور شكري محمد عياد خلال دراسته لرواية من روايات غسان ازاح النقاب عن السبب الحقيقي وراء اختيار غسان لشكله الفني الذي يقوم على الابعاد الثلاثية للزمان وتفاعلها في انسان بعينه فيصرح الدكتور بقوله (ان فكرة « الماضي والمستقبل » لم تلح على ضمير عربي بقدر ما الحت على الضمير الفلسطيني ، وليس مصادفة ان نجد رواية مهمة هي «عائد الى حيفا» لغسان تعالج الموضوع نفسه)(٥) اذن فالمضمون الفكري لاعمال غسان الروائية والقصصية يفرز الشكل الفني والشكل الفني في المقابل يوضح ابعاد المضمون الفكري وهذا التناسق والانسجام هو ما نبحث عنه في ما بعد غسان ، فهل هو متحقق في اي عمل روائي او قصصي فلسطيني ؟

٣ ـ تطبيقات دراسية

قبل ان ندخل في عملية استقصاء واستقراء للاعمال الروائية والقصصية الفلسطينية الجديدة نؤكد على ما يلي (على الرغم من كثافة الاعمال الادبية الفلسطينية التي افرزتها المرحلة الثورية من حياة الشعب الفلسطيني لم تعط المرحلة ذاتها اتجاهات نقدية متخصصة ، فهل هذا العقم يرجع الى طبيعة المرحلة ؟ ان الجواب سيبدو قاسيا قليلا في البدء ذلك ان القضية الفلسطينية التي تعالجها تلك الاعمال قد انزلت بمثابة ستارة للتواري خلفها حيث لا يملك اي ناقد مهما كان توجهه الفكري والسياسي سوى ان يصنف العمل الادبي الذي يتحدث عن القضية بانه مع ـ او ضد ... وكفى) (٦) بدون ان تلقى المواصفات الفنية ادنى اهتمام ، لذلك فنحن نحاول ان نجعل من دراستنا هذه مقدمة نظرية ومخرجا من دوامة سياسية ربما تبرر في الساحة السياسية ولكنها لا يمكن ان تنعكس بسلبياتها على الادب الفلسطيني ، ولاننا نرى انه من واجبنا تنقية العمل الادبي الفلسطيني الروائي والقصصي من شوائب المدعين والمدسوسين عليه تحت ستار التفني بالقضية الفلسطينية ونحن بالتالي سنتحمل نفقات ومشاق هذه المهمة الصعبة .

لم تصدر خلال وجود غسان وبعد استشهاده سوى اربع(٧) روايات فلسطينية قصيرة ، منها اثنتان لرشاد ابي شاور وواحدة لتيسير سبول وواحدة لفيصل حوراني وان كانت قد نشرت مجموعات قصصية فلسطينية كثيرة كما نشر العديد منها متفرقا في الصحف والمجلات الادبية والسياسية ، ومن الملاحظ ان هناك ضحالة كمية في الرواية الفلسطينية ، وبالطبع فان هذه الضحالة الكمية ناتجة عن كون بناء رواية ما يحتاج الى مجهود اعمق وانتظارات طويلة لنهاية مرحلة او بدء مرحلة والى عملية هضم جيدة لمختلف التيارات السياسية والنفسية والاجتماعية التي تجتاح المجتمع المتكامل ، فما بالك بمجتمع كالمجتمع الفلسطيني الممزق والمشتت ؟ ان امكانات الرواية هي امكانات تاريخية وحضارية ونفسية هائلة وعامة لا يمكن حصرها في وقائع جزئية محضة تعتمد الريبورتاج الصحفي والشعار الدعائي والنعرة السياسية وان كانت تستعمل هذه العناصر في بنائها الكلي لتستخلص ماهية عامة ، فالرواية تدين حضاريا ولا تسب وتلتقط سيماء معاشة ولكنها لا تفرق في الانتقائية السياسية للشعارات . والرواية ، وحتى الرواية التسجيلية ، تبرز المجرى العام للحدث التاريخي ، الا انها لا تهبط الى مستوى المماحكة الصحفية الرخيصة ، لقد كانت رواية تيسير سبول عملا فنيا لم يتخلص من بعض التشويهات الآنية للمؤلف نفسه فهو يتحدث فيها عن محنة الشباب العربي والفلسطيني بشكل عام يتجسد فيه البتر والتفصيل الناقص ، وقد خلص تيسير سبول من مقدماته في الرواية الى نتيجة سلبية فيها وهي ان الانسان المتفرد منفي في عالم متوحش مدلهم، وهذه النهاية نهاية اشتهر بها ابطال البير كامو وسارتر ، لذا كانت نهاية مفتعلة ومنتقاة ، لم تنم النمو الطبيعي اللازم لاي حدث

---

(٣) نفس المرجع السابق

(٤) مجلة « الاديب المعاصر » ، تصدر عن اتحاد الادباء في العراق العدد ٦ ، تشرين ثاني ٧٣ : « الارض وقضية الثورة في رواية غسان كنفاني » بقلم محسن جاسم الموسوي .

(٥) مجلة « عالم الفكر » تصدر عن وزارة الاعلام في الكويت ، عدد اكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٧٢ ، مخصص لدراسة الاتجاهات في الرواية المعاصرة : « الرواية العربية المعاصرة وازمة الضمير الحديث » بقلم دكتور شكري محمد عياد .

(٦) حول النقد الفلسطيني ، مقال بقلم هاني الزعبي ، مجلة فلسطين الثورة ، العدد ٨٩ ، ٢٤ نيسان ١٩٧٤ .

(٧) الروايات الاربع هي : « انت منذ اليوم » تيسير سبول ، صدرت عن دار النهار ، و « ايام الحب والموت » لرشاد ابو شاور، صدرت عن دار العودة عام ٧٣ ، و « البكاء على صدر الحبيب » ،عام٧٤ لنفس المؤلف وصدرت عن نفس الدار و« المحاصرون » لفيصل حوراني وصدرت على حساب المؤلف بدون ذكر اسم الدار .

روائي وبالتالي فان هذا فرض نفسه على الشكل الفني عنده واصبحت روايته مجرد دفتر ذكريات لشاب مقهور من ثقافته يزداد قهره ومن اصراره على هذا القهر يتحطم ، وفقد المخرج الثوري فيهذه الرواية، فانت تشعر عندما تقراه بجو من المراهقة المتشائمة يسيطر على الكلمات فيهزها ويفقدها التعبير الكامل عما في نفس المؤلف ، ولم يتخلص تيسير من تلك المشاعر حتى قام بعملية انتحاره .

اننا لا نقدر ان نصف تلك المشاعر بالخبث او العنجهية ولكننا نحكم عليها بانها مشاعر وكلمات مركبة من احساسات كثيرة ربما لم تكن متناسلة من نفسية الكاتب ووضعه الاجتماعي . كانت هناك اعباء وجوده كفلسطيني ترين عليه ، وكانت هناك ايضا عبثية مستوردة من الثقافة الغربية البحتة جرته الى الفاجعة ولم يكن بسبب هذا الضباب الذي وضعه نفسه المصير العام الفلسطيني متجليا ومنفتحا امام عينيه ، كان كل شيء لديه قدريا وعبثيا بالاضافة الى كونه شابا فقد العدالة على ابواب وكالة الغوث ، ثم ان عنوان الرواية نفسه يرمينا في خضم المأساة التي لم يفهمها الكاتب ، ماساة بلا سمات تاريخية سجلت ذلك العنوان « انت منذ اليوم » ان السمات الفلسطينية في رواية تيسير كانت الجهة السلبية المضنية ولم تعط صورة بقدر ما دفعته الى العبثية الفكرية ، اذن فهو لم يكنيغوص الى ينابيع الحياة ليتشرب قارئه منها ولم يكن يبرز نمطا تاريخيا عاما ولم يكن منسجما مع معطيات وجوده الفلسطيني ونتائجه القصوى . انه شتات بدون جذور وهي حالة تخرج عن المفاهيم او التعاريف الثلاثة التي راينا ان لا بد لاي روائي او قاص من الدنو منها او وعيها ليخرج عمله فنيا تاريخيا يمكن له ان يستمر في الزمن . وقد كان تيسير معلقا بفضاء بدون زمن ، وهذا ما جعل الزمن يطفى الان على روايتهاليتيمة ويدفنها في ارض النسيان .

وعلى الطرف النقيض والمضاد يقف الان رشاد ابو شاور ، انه غارق في حالة الفلسطيني الموجبة بحيث لا يرى الابعاد الاخرى لوجوده ، انه يكتب بسهولة وبسرعة عن الاحداث الانية ، لذا فانه يسب بلا مواربة ويجعل من الرواية مانشيتا سياسيا ، وروايتاه شتيمتان لكل من يخالف نموذجه السياسي . ففي روايته الاولى « ايام الحب والموت » يقتطع شريحة مبتورة من المجتمع الفلسطيني وربما تكون هذه الشريحة ليس لها وجود الا في خياله . ففي قرية من قرى الخليل ما قبل نكبة ٤٨ تدور احداث الرواية ثم يسقط رشاد على هذه الشريحة القديمة كل ارائه السياسية التي ولدت من كنه المرحلة الحالية ، فهو لا يسجل وروايته ليست رواية تسجيلية ولكنها ايضا ليست رواية تفتح لنا مكامن المرحلة الحالية . فهي اتجاهات سياسية انية وهو عندما يستعمل اللغة العامية يخال انه يعطينا السمات الفلسطينية للعملالروائي. ولكن ماذا لو حذفنا اسم القرية وبعض الكلمات العامية التي في الرواية فهي ستصبح قرية ، اية قرية في اي زمن ، ولكن هل هذا يعني مقدرة رشاد على خلق المقدرة النموذجية او النمطية الحية؟ ان اشخاصه تتحرك وتتكلم ولكنك تشعر ان رشاد هو الذي يحرك تلك الدمى ويتكلم بالنيابة عنها ببهرجة ..

لناخذ هذا المقطع من الرواية (خرج الناس من المغاور على صراخ المراة ، تحلقوا حولها ، اخذت النسوة يندبن ، الرجال عيونهم جامدة ترسل النظرات في الافق البعيد ، تجمعت النسوة عند ام محمود يواسينها ويخففن عنها المصاب لكن الرجال انتهروهن .. بيكفيخلاص.. الشهيد ما بينبكى عليه ، ما مات الرجل ـ قتل ، مات موت الرجال) (٨) ان هذا المقطع جاهز في عقل رشاد ليكون مانشيتا سياسيا دعائيا في مهرجان تابين شهيد ، ولكنه لا يمكن ان يكون من مكونات الرواية التي تعتصر الواقع لتستخرج منه طاقة البقاء والاستمرار في الزمن . ان الالفاظ هشة غير قابلة لان تبلغمستوى السمات العامة او مستوى العمق السري للانسان الفلسطيني ، وهي لم تستولد بالاصل من معاناة فلسطينية نمت على ارض الواقع ، اي واقع.

اما في روايته الجديدة « البكاء على صدر الحبيب » فانرشاد يتقدم نحو النضج الفني ، الا ان طبيعته الاولى لم تزل تسيطر عليه فهو يشتم بطريقة مباشرة لا يمكن ان يفهم مضمونها الا شخص له صلة بالناس الذين يتكلم عنهم ، اعني ان القاريء اذا لم يكن يعرف ولو شيئا بسيطا عن شخصيات الرواية فانه لن يعي ما الذي يقصده الكاتب . فهو مثلا يحدثنا عن فتاة اغتصبت وتعلن في الرواية انها اردنية ، لقد اغتصبها الخونة والمجرمون وهي مناضلة لهذا السبب، اما كيف ينبني الاثر النفسي وكيف تنمو الفتاة نضاليا في مجرى التاريخ النضالي فهذا ما نفتقده تماما (نظرت في عيني مباشرة ، كان خطيبي ولكنه راح ، المهم ، كنا في الاغوار معا ودخلت معه عدة عمليات ، اخر مرة هاجمنا كمينا وراء النهر وكان هو في الضفة الشرقية ليغطي اقتحامنا ») ويستمر (ثلاث عمليات جراحية اجريت لي اخرها في مستشفى السلط ، واقسم انني غادرت المستشفى وجرحي ينزف حين حدثت مجزرة ايلول) (٩) هكذا يتكلم رشاد بلغة بسيطة وربما فيها شيء من النضج حين يسجل وقائع، الا انه يعود الى الشتيمة السياسية في حالات كثيرة تبعده عن ان يكوّن بناء دراميا لرواياته يؤدي الى جعل هذه الروايات تظهر صورة عامةللانسان الفلسطيني .

اما رواية « المحاصرون » لفيصل حوراني فمسالتها تكلم عنها الكثيرون من الذين عانوا مذابح ايلول . ويكفي ان نشير الى ان احداثها وشخصياتها تعيش وتعاني في ايلول عام ٧٠ في الاردن وان الكاتب لم يزر تلك المنطقة سوى يوم او يومين قبل تلك المجازر ، وان حماسته للثورة بعد هذا دفعته الى كيل الاتهامات لشخصيات حية من قيادات المقاومة في الاردن ، ولسنا ندري هل سيفهم القاريء هذه الشخصيات اذ لم يكن على اتصال بها . لقد طفت الشعارات السياسية والادانات السياسية والمزايدات العلنية على العمل الادبي الفلسطيني الروائي والقصصي وابتعدت به تمام الابتعاد عن الاطر والسمات الفنية الدقيقة . ونحن اذ نعلن ذلك ونكشفه فانما نرجو من وراء ذلك الوصول الى خلق فن روائي فلسطيني يتخذ صفة العالمية حين يبلور له سمات فكرية انسانية تهم الانسان بمجموعه .

* * *

اما في مجال القصة القصيرةالفلسطينية فالحال يختلف بمقدار ملحوظ . ذلك ان القصة القصيرة الفلسطينية تحاول الخروج من ازمتها بالوصول الى اشكال جديدة تتناسق مع مضامينها الفكرية والسياسية ، خصوصا وان القصة تنفعل وتتفاعل مع الحدث الانني وتوتراته ويمكن لها ان تستخرج منه نتيجة عامة ومعاشة بخصائصها، بالاضافة الى ان كثرة الاعمال القصصية الفلسطينية كان لها التاثير الكبير على النوعية . فالقصة القصيرة متحركة على صفحات الجرائد والمجلات وقراؤها اكثر ، وقسم كبير من هؤلاء القراء لم يعد يهتم بالمسببات السياسية والشعارات المزايدة ، انه يريد ان يرى نفسه ببصراعاتك ذاته ، ويتطلع الى ما يحيط به من تيارات مغلقة او مفتوحة سياسية وفكرية ليحدد موقفه ، لذا حاول عدد من القصاصين الشبان الفلسطينيين تجاوز مسالة الشعارات الى اشكال فنية توضح خصب اتجاهاتهم السياسية الحية بشكل مقنع ، فهناك مثلا يحيى يخلف وربعي المدهون وفاروق وادي ومحمود شقير الذي قرانا له « خبز

---

(٨) ايام الحب والموت « لرشاد ابو شاور ، ص ٩٢ .

(٩) « البكاء على صدر الحبيب » لرشاد ابو شاور، ص ٦٠ .

الاخرين » عام ٦٦ (١٠) وهي من انضج الاعمال القصصية الفلسطينية وتبشر بموهبة خلاقة وكانت رمزا بدائيا لتفجر الثورة الفلسطينية، الا اننا افتقدنا نتاجه على اثر الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية التي يسكنها محمود ، ولناخذ مثالين على القصة القصيرة ، الاول هو ليحيي يخلف ، فيحيى في مجموعته الاولى المسماة « المهرة » (١١) يطابق المضمون مع الشكل ، ومضمونه يفرز الشكل الفني . في قصته « الطائر الاخضر » نرى الكلمات تفلت منا مرتبكة متموجة ونجمع لتاخذنا معها الى نفسية البطل وهي تروي قصة احد الاشخاص المنتمين للثورة في ايلول . ولنقرا (في زمن الحصار ، لا احد ينجو .. الظل والبراءة .. لا ، ، ولا حتى شوكت ، يتوقف .. الى اين ، الجامعة مثلا) (١٢) انه احدهم ، افلت من الذبح كما ذبح صديقه امام عينيه وهو يخجل من وجوده امام اخت هذا الصديق وكلماته متقطعة تفرض نفسها عليه ولا يملك هو لجمها ، انها تجمح جموح نفسه الحائرة ، وفي هذا سر البناء الفني عندما يتناسق ويلتئم مع المضمون ويستخرج يحيى في النهاية من القصة سمة عامة يستشعرها بطله (انه يجب اعادة تشكيل الاشياء من جديد) (١٣)هذه هي السمات الفكرية التي يتحدث عنها جورج لوكاتش : انه الحتمية التاريخية ، اما في قصته « العجز » وهي تحكي قصة احد الثوار الذين اصيبوا بالشلل النصفي من الاسفل ،فان الكلمات تبدو امامنا دبقة ، لزجة ، بطيئة ، ولكنها مليئة بالدفء وبرغبة الحضور والتاثير . انه يشاهد من نافذته العالم ، (يتصفح الجرائد ،يتصفح السيقان ، يتصفح الجوع في الوجوه الصفراء ... واحيانا من الطابق الثالث تبدو الاشياء بلا ميعاد ـ) (١٤) انه شاهد على مرحلة كاملة ، مرحلة العجز وحالة اللاسلم واللاحرب قبل تشرين ٧٣ . انه مصاب . ولننظر هنا كلمة الفعل « يتصفح » انها تتكرر بضجر وبوعي مقصود من الكاتب لتوطيد شعور العجز ونقله الى القارىء. ومع تحفظنا على الاتجاه السياسي التي تمثله القصة ، فانها قصة بنيت بدقة فنية محترفة ، الا انه يستخلص ايضا النتيجة المنطقية لشعور العجز السياسي والنفسي ولمرحلة تاريخية حين يصبح البطل « يا الهي كيف يطيقون العجز » (١٥) ويعود يحيى الى السطح الظاهر ويتورط ايضا في مشكلة التاريخ السريع والمكبوت لمراحل لم تتضح سماتها ، فيؤرخ لثلاثة اجيال فلسطينية في قصة قصيرة لا تتجاوز عشر صفحات هدفه ان يقول كلمة سياسية فحسب ويدلي بدلوه في السياسة الجارية .

اما القصة القصيرة الاخرى الملفتة للنظر حقا ببنائها الفني المعماري والنفسي الجيد فهي للقاص الجديد ربعي المدهون ، وهي بعنوان « الخطيفة » (١٦) يبداها بلحن هرموني دقيق اللفظ يتصاعد حتى يصل القمة المأساوية والمصير الحتمي وليكون مقدمة لهذا المصير (عواء الكلاب وحده يمزق سكون الليل المتراخي على جنبات القرية .. ووحدها كانت الكلاب قادرة على ممارسة العشق بين الازقة) (١٧) اننا هنا نحس بانسان يتلف رباطة جاشه القلق النابع من محيطه وتدل جملة « ووحدها كانت الكلاب ..» على قمع وكبت جنسي لا يريد ان يصرح به الكاتب مباشرة ، الا انه يطلعنا على تاثيراته . والجملة تدل على كاتب يعي كيف يكتب ويحاول الاتقان حرفيا ، تحكي القصة قصة فدائي يحب فتاة من الجنوب ويرفض اهلها ان يزوجوها اياه فيخطفها برضاها ويتزوجان ثم يذهب في مهمة الى الارض المحتلة ولا يعود . وتحمل المرأة ثم تنجب وعندما تياس من عودته يتزوجها احد اصدقائه لحمايتها وتربية ابن صديقه ويعود الزوج الاول فجاة بعد ان هرب من الاسر ، وهنا يحدث الشرخ والتمزق . ولكن كان لا بد من الاختيار وتختار الفتاة زوجها الثاني الذي ربى ابنها ، انها لحظات مواجهة عنيفة مع واقع مرير رسمها ربعي عندما اختلط وعيه مع المصير الفلسطيني بصور تزداد سخونة ومرارة بعد كل مقطع ، الا ان ما نلمسه في قصص ربعي هو النحت الصعب للكلمات فنحس بالكلمات منحوتة بشكل يابس .

هذه هي المعالم العامة للرواية والقصة الفلسطينيتين ونحن لا ندعي اننا قمنا بدراستها بتفصيل دقيق ولكننا رسمنا المخطط الاساسي لاتجاه سيرها مع توضيحنا لبعض التفرعات الخاطئة من هذا الاتجاه . وللحقيقة نقول ان سرعة جريان الاحداث السياسية وتوزع اتجاهاتها في صفوف الثورة هما عاملا خصب للفكر السياسي ولكنهما تمزق شديد يفرض نفسه على حركة الكاتب وبنائه الفني، فالكاتب الفلسطيني ، وله العذر ، ينتمي للمسالة السياسية اكثر من انتمائه للفن والبهرجة . وكان هذا الانتماء جيدا لو اننا نبحث عن افق اكثر بعدا وعمقا ، فالقضية الفلسطينية بحاجة الى الكاتب الخلاق الذي يوصلها بشكل فني يدخل ضمن نطاق القيم الانسانية العامة .

ونختتم هذه الدراسة القصيرة بكلمة سجلها غسان كنفاني عن الادب الصهيوني وخصوصا الرواية الصهيونية ومدى اتقانها للشكل الفني وتناسقه مع المضمون ، خصوصا وان هذه الرواية استعملت لتزوير الحقائق . ففي (هذا النطاق بذل الفكر الصهيوني جهده لتبرير الاعمال الادبية واعطائها ارضا حقيقية الى حد لم يعد يستطيع فيه القارىء ان يعرف اذا كان « اكسودس مثلا » هو المصدر الذي يعتمده المؤرخون اليهود ام ان مؤلف اكسودس اعتمد المصادر التي كتبها المؤرخون اليهود) (١٨) .

وهكذا فان الفن الادبي اصبح في الفكر الصهيوني مصدرا معتمدا من قبل المؤرخين الصهاينة كما كان المؤرخون الصهاينة ينبوعا يستقي منه الفن الصهيوني . وفي هذا الاتجاه يتم خلق عالم متكامل الجوانب يتكلم لغة عالمية وتاريخية يتعارف عليها بثناته كطريقة لابراز السمات العامة للشخصية الصهيونية ومعاناتها من خلال وضعها في تجربة حية تعيشها بخصائصها الجزئية .

---

(١٠) اعيد نشرها في مجلة فلسطين الثورة منذ مدة قريبة على اثر اعتقال الكاتب .

(١١) صدرت عن وزارة الاعلام العراقية ١٩٧٤ .

(١٢) نفس المرجع ص ٦ قصة الطائر الاخضر

(١٣) نفس المرجع ، نفس القصة ص ١٢ .

(١٤) قصة بنفس المجموعة ص ٨٧ .

(١٥) نفس المرجع ص ٩٤ .

(١٦) نشرت في مجلة البلاغ اللبنانية العدد ١٢٠ نيسان ١٩٧٤.

(١٧) نفس المرجع .

(١٨) في الادب الصهيوني بقلم غسان كنفاني صدر عن مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ،عام ١٩٦٧ .

مكتبة انطوان

شارع الامير بشير ـ بيروت

تقدم اكبر مجموعة من كتب الهدايا

في مختلف اللغات العربية والافرنسية والانكليزية

موسوعات مصورة ، علوم متنوعة

ثقافة شاملة ـ حضارات الامم

مكتبة انطوان ـ شارع الامير بشير ـ بيروت